

في تجديد غرض الرثاء

شوف عبيد

قد أخذ المنحى الشكلي - بما فيه من مقاربات عروضية وإيقاعية و غيرها - جهودا جمة في تنظيرات الشعر الحديث حتى بدا التجديد فيه يكاد لا يتمثل إلا في مظهر المباني بينما ظلت مسألة المعاني و الرؤى والصور قليلة الحضور و التناول على مستوى النصوص النظرية والحجاجية لذلك نرى أنه يتعين على المتابعين لتطور القصيدة العربية الحديثة أن يعكفوا كذلك على سبر مثل هذه الأغوار الداخلية للوقوف على مدى إضافات الشعر الجديد و رصد تحولات القصيدة الحديثة تلك التي ولئن طرقت نفس المواضيع القديمة عموما إلا أنها تناولتها من زوايا أخرى و بأساليب مغايرة مثل موضوع الموت

في الموت قصائد عديدة ضمن أغراض الرثاء والتأمل والزهد وغيرها فهو من المواضيع التي يزخر به ديوان الشعر العربي على مدى توالي عصوره و ترامي أمصاره غير أنه أضحي في مدونة الشعر العربي الحديث موضوعا قد تناوله بعض الشعراء بكثير من التجديد سواء من حيث المناسبة و العبارة أو من حيث الإيقاع والصورة ناهيك عن النظرة إليه من حيث الرؤية الاجتماعية و الدينية و الفلسفية فظهرت قصائد عديدة في ما يسمى بالرثاء الذاتي تتمحور عموما حول فكرة أساسية غالبا ما تؤكد على أن الشاعر قد نفض يديه من الدنيا تلك التي يغادرها وحيدا بلا أهل و بلا أصدقاء وبلا مراسم دفن أو طقوس جنازية لكان القصيدة تتحول إلى عتاب لمعاصري الشاعر لتصل إلى الخيبة والمرارة...إنها قمة المأساة

من بين أولئك الشعراء الشاعر والأديب صالح القرمادي في ديوانه - اللحم الحية - الصادر بتونس سنة 1970 حيث نقرأ له قصيدا بعنوان - نصائح إلى أهلي بعد موتي - يقول فيه

إذا متّ مرّة بينكم
وهل أموت أبدا
فلا تقرؤوا على الفاتحة وياسين
واتركوهما لمن يرتزق بهما
ولا تحلوا لي في الجنّة ذراعين
فقد طاب عيشي في ذراع واحد من الأرض
ولا تأكلوا في فرقي المقرونة والكسكسي
فقد كانا أشهي أطعمة حياتي
ولا تذروا على قبري حبوب التّين
لتأكلها طيور السّماء
فالأحياء بها أولى
ولا تمنعوا القطط من البول على ضريحي
فقد اعتادت أن تبول على جدار بيتي
كل يوم خميس
فلم تزلزل الأرض زلزالها
ولا تزوروني في كل سنة مرّة
فليس لديّ ما به أستقبلكم
ولا تقسموا برحمتي وأنتم صادقون
ولا حتى وأنتم كاذبون
فصدقكم وكذبكم عندي سواء
ورحمتي لا دخل لكم فيها
ولا تقولوا في جنازتي أنتم السابقون ونحن اللاحقون
فليس هذا السّباق من رياضاتي
إذا متّ بينكم
وهل أموت أبدا
فضعوني في أعلى مكان من أرضكم
واحسدوني على سلامتي

إنه خطاب تأبين ذاتي أو وصية إلى أهله و أصدقائه
يعلن فيه القطيعة بينه وبينهم على جميع المستويات
بل ويتهمك من عاداتهم و اعتقاداتهم مما يؤكد الغربة
التي عاش فيها بينهم
بحيث أنه عندما يدفن بعيدا عنهم سيلقى الهناء والسلامة

أما على مستوى الأسلوب فيبدو الكلام قريبا جدا من
المستوى المحكي اليومي ولكنه حامل لكثير من
التضمينات ذات الأبعاد الاجتماعية والفكرية والدينية مما
يجعل القصيدة تعبر بالبساطة و السلاسة عن المعاني

المعقدة والإشارات البعيدة

وفي هذا السياق نقرأ قصيدة - بكائية البحر - للشاعر محمد الحبيب الزناد في ديوانه -
المجزوم بلم - الصادر بتونس سنة 1970 وهو في رثاء أمه حيث يقول في بعض مقاطعها

خرجت تتفقد الأحباب
كان البحر جميلا ساخرا كذاب
عقدت عليه أشواق الأهداب
ورمت إليه بما في العمر من أتعاب
أعجبها النخل على زيفه
و الرمل وضوح سراب

خرجت تلوي على فرح جذاب
لبست جلباب
أبيض كالصبح لا حقد فيه
و لا لون اغتراب
خرجت تواجه زيد الموج وتمويه السحاب
مابين فتح الباب و غلق الباب
سنوات شطت وحبيب غاب

...
أعطني من ملحك يا بحر
ملح كلماتي
أعطني شعرا لأمواتي
ماذا عن الدنيا يا غامض الألوان
ويا قادرا عاتي
ماذا عن الأموات

جالت عيناها في البحر
فارتعش البحر لعينيتها
علته الزرقة

فيبدو بوضوح أن الرثاء في هذه القصيدة يختلف إلى حد بعيد عن قصائد الرثاء في دواوين الشعراء القدامى لا من حيث المبنى فحسب وإنما من حيث المعنى أيضا بما فيه من مفردات و إسنادات و مواقف و مشاهد جديدة كان البحر فيها نقطة الانطلاق ومدى الآفاق

للشاعرات أيضا نصيب في قصائد الموت الحديثة حيث تناولن هذا الغرض بنظرة تجديدية واضحة نذكر منهن الشاعرة آمال جبارة في قصيدتها - مقبرة - بديوانها - أرق الكلمات - الصادر سنة 2006 و التي تصور فيها مقبرة مدينة المهدية التونسية تصويرا هو أقرب إلى الرسم التشكيلي حتى لكان القصيدة تستحيل إلى لوحة يطغى عليه اللون الأبيض بداية من أزهار الأقحوان إلى بياض القبور وزبد البحر غير أن اللون الأسود يسجل حضوره في آخر القصيدة وذلك عندما يخيم الليل القصيدة إذن قائمة على سجل من الثنائيات و المدلولات من بينها ثنائية الأبيض و الأسود وهي تتراوح أيضا بين العمق و الارتفاع و تنزل بين المد والجزر أو بين البر والبحر وهي تتجلى من ناحية أخرى بين الحضور والغياب أو بين زمن الفاطميين والزمن الحاضر لتظهر معاناة ثنائية الحياة والموت تلك التي تعبر عنها الشاعرة وهي تزور المقبرة البحرية فتلقى في أحضانها الصفاء والسكينة والسلام فالمقبرة في هذه القصيدة لا تعني الموت وإنما تتحول إلى رديف للحياة المنشودة وبذلك تنقلب جميع المعادلات المعهودة

هناك

حيث ينام الأقحوان قيد قبور من البحر
على بعد شهقة من 'البرج'
تتسنى لي الحياة مرّتين
ما بين قبر وعوسجه

صخور الفصل مرهقة
ترسم حدود الحياة
والعمق يحثّ الرّبْدَ
يغازل الشّواهد المؤثّه

عاصمة الموت الفاطميّ
تدلك مفاصلها بمرهم المدّ
شبق يحتدّ
و تشهق في البرج الأعمده

للموت حضاراتٌ يجهرها الصّمت
هناك... بين القبور

تتقاسم مع البحر كلَّ الزَّمان
وبعض الأمكنه

ينهزم الغياب
في الكفِّ الفاطميِّ المخضَّب
تستبيح الأرواح ترك الغطاء الحجريِّ
أهله أراها هاته المقبره

اللَّيل يحبُّ الانفتاح على المسالك
بين القبور
يخلد الرِّيد الى الصَّمْت
حين تلاً الأرواح نجوما مبعثره

الموت هديّة المنهكين/عودة مذهلة للصِّفاء الأوّل
أمارس التَّبش اضطراراً
لأقبر رغبة في الحياة دون التَّضح
كم أفارق الجسد في هاته الأمكنه

أضرحه يزورها الأ.....موات
يربكون هدوءها
بتجوّحة اليتيم الحقيقي
تتداخل الظلال في الخميسات
في ليالي الجمعه

أضحت طقوس النَّدب مشنّنة
بين الرِّغبتين
كم ممتّع هذا الصِّراخ الأزليِّ والرّجع مقبور
حين الليل يحتضر في هذي الكفِّ المقفره

كذلك هو الشعر العربي الجديد - في مختلف أنماطه
وتسمياته - ليس تجديده في خروجه عن التفعيلات والبحور
والقوافي فحسب و إنما في ظهوره بأساليب من
المفردات و الإسنادات والمجازات والإشارات وحتى في
مستوى توزيع كلامه على الورقة ليأتي بمعان و أحاسيس و
يرنو إلى أبعاد و يعبر عن معاناة ظروف أخرى لم يعيشها
السابقون...و تلك لعمرى شرعية التجديد في كل عصر

لقد كان التعبير عن الموت في مختلف أبعاده أحد
مظاهر ذلك التجديد الواضح المعالم والمتعدد المظاهر

أيضا في مدونة الشعر العربي المعاصر على مدى
النصف الثاني من القرن العشرين وذلك على مستوى
الشكل والمضمون معا ولئن كان الخروج على البحر
الشعري حيناً وعلى التفعيلة حيناً آخر واضحاً بعد الحرب
العالمية الثانية خاصة وكان سمة بارزة في التجديد الذي
لاحت تباشيره منذ أوائل القرن العشرين ، فإن الشعر
الذي ظل ملتزماً بالنمط الإيقاعي التقليدي قد طمح هو
أيضاً إلى آفاق أخرى جديدة من خلال المواضيع والصُّور
الشعرية المستحدثة وفي هذا السياق سنقف عند
قصيدة لجعفر ماجد

في القسم الأخير من المجموعة الشعرية "تعَب" للشاعر جعفر
ماجد والذي جعل له عنوان - تأملات في الحياة و الموت -
قصيدة في غرض الرثاء تحت عنوان حقيقة المفاجآت وهو
نفس عنوان برنامج الفقيد الراحل صالح جغام
ولئن كان موضوع القصيدة تقليدياً يندرج ضمن غرض
الرثاء فإن القصيدة قد فاضت وإنداحت على معاني التفجع
المألوفة لتلامس تخوماً جديدة في القول الشعري بالرغم من
توحيها الدروب التقليدية مبنى و معنى، فأين تتجلى مظاهر
التجديد؟

مظاهر التجديد في هذا القصيد كامنة في شخصية المرثي
فهو إذاعي قدير و صاحب معاناة ثقافية وهذه صفات جديدة
وطارئة على سجل الرثاء في الشعر العربي الذي يجد
التعبير فيه سهلاً إذا كان المرثي من الأقارب أو من الفرسان
أو من الأمراء و الأدباء و العلماء أما و الحال يتعلق بإذاعي فقد
عمد جعفر ماجد إلى المعاني التالية

في مطلع القصيدة اعتبر جعفر الميت نائماً في قوله

تَمْ هنيئاً فأنت يا صاح متعب
تَمْ هنيئاً و خلنا نتعذب

فأكد النوم و الهناء بالتكرار وجعل من صيغة الأمر طلباً
برفق و رجاء من خلال السياق مع المقابلة بحال المتكلم في
صيغة الجمع ذلك أن الفقيد كان موته كأنه إستراحة المحارب
بينما العذاب كان من نصيب (نحن)
فمنذ المطلع تحدث المفاجأة في سير الأمور ذلك أن
الميت قد تعذب وهو يغالب الموت لكن الشاعر قلب الآية

وجعله ينام نوما مطمئنا بينما ظلَّ هو وصحبه في العذاب،
و لعلَّ هذه المباغته الشعرية صاغها الشاعر من عنوان البرنامج
المذكور فكان طالع القصيد منسوجا من خيوط تفاصيل
شخصية المرثيِّ
و في البيت الثالث يصرح الشاعر بالمفاجآت قائلا

أنتَ فاجأتنا فهل شئتَ حقًا
أن تظلَّ المفاجئ المتوتِّب

و في البيت الرابع ترد المفاجأة بصيغة الجمع قائلا

قد صنعت المفاجآت بحذق
و سبقت الجميع في كل مشرب

و في البيت الخامس يصرح بالحقيبة ألا وهي حقيبة
المفاجآت التي تصبح المفاجآت حقيبة فتقلب العلاقة
الإسنادية بين الكلمتين من مضاف ومضاف إليه إلى مبتدأ
و خبر

لقد جعل جعفر ماجد الموت نوما في مطلع القصيدة ثم بداية
من البيت السادس يجعل موت صالح جغام مفاجأة من مفاجآت
حقيبته كأنه وهو ميِّت ما يزال حيًّا يفاجئ الأحبة بجميل وغريب
ما لا يتوقعون قائلا

غير أن التي فعلت أخيرا
أبدا لم تكن له نتأهب

أما بقية معاني الرثاء فهي من سجلات منتظرة في هذا
الغرض كالهلع و الدموع و التأمل و الحكمة إلا أن الأبيات الثلاثة
الأخيرة فيها معان جديدة في الرثاء و هذه الأبيات هي

هكذا نحن دائما لا نبالي
بعذاب الطيور حين تعذب
فإذا آذن الرحيل و غابت
شاقنا صوتها و أشجى و أطرب
طلعت شمس هذا النهار علينا
أين صوت نحبّه حين يغضب؟

فتشبيه الموتى بالطيور جديد على الشعر العربي القديم

الذي قد نقرأ فيه بعض الإشارات إلى طائر خرافي يخرج من رأس القليل صائحا إذا لم تأخذ عشيرته بثأره و يسمى هذا الطائر الصدى و قد ورد في لسان العرب قول أبي عبيدة

سلط الموت والمَنون عليهم
فلهم في صدى المقابر هام

لكن الطائر في هذه القصيدة كان رمزا للمعاناة وللعذاب و هما قدر المبدع الملتزم بالقيم النبيلة في هذا العصر و الذي يعترف له الناس بقيمته وعطائه بعد أن يدفع حياته على الحساب فختام القصيدة ورد في معاني الحكمة بأسلوب جديد أما البيت الأخير فهو مسك الختام حيث يجعل جعفر ماجد الشمس طالعة رغم هذه الأحزان إلا أن شخصية المرثي تظهر من جديد في الكلمة الأخيرة عند قوله

أين صوت تحبّه حين يغضب

فهذه الصيغة هي إلى الحسرة أقرب وهي تمثل صفة من صفات صالح جغام المتمثلة في غضبه الواضح وهو وراء المصداح عند الغيرة على الذوق العام و عند التحمس إلى المعرفة والثقافة فالقصيدة إقتبست في كثير من أبياتها شخصية المرثي وإستعملت أساس برنامج الإذاعي بحيث أن غرض الرثاء فيها تلون بخصائص المرثي فجعفر ماجد في هذه القصيدة جدّد ضمن الإطار التقليدي...إنه التجديد من الداخل ...من داخل المعمار الشعري التقليدي